دولة سلاطين المماليك الأتراك فى الهند

واوجه الشبه بينها وبين دولة المماليك الأولى فى مصر

على الرغم من أن الولاة المسلمين بالسند الهندية زمن الأمويين والعباسيين لم يحاولوا توسيع أراضى ولايتهم ، حتى أواخر القرن العاشر الميلادى ، فإنهم عملوا على التوسع فيما بعد فى إقليم أفغانستان الممتد على طول التخوم الهندية الشمالية الغربية ، حيث قامت فى إقليم غزنة فى قلب جبال سليمان دولة تركية فتية ، وهى الدولة الغزنوية (٩٦٢ — ١١٨٦ م = ٣٥١ — ٥٨٢ هـ) . وأول توسع قامت به الدولة الغزنوية فى الهند كان فى عهد ملكها ناصر الدين سبكتكين ، وهو الذى فتح مدينتى بست وقصدار سنة ٩٧٨م ، وهزم جيوش جيبال صاحب إقليم لاهور ، وشتت شملهم على حدود البنجاب ، ثم مالبث أن أسر جيبال ، ثم أطلق سراحه بعد أن تعهد له بالجزية .

وجاء بعد سبكتكين ابنه محمود الغزنوى (٩٩٨ — ١٠٣٠ م) الذى غزا بلاد الهند اثنتى عشرة مرة (١٠٠١ — ١٠٢٤ م) ، مدفوعاً فى ذلك بعامل الجهاد الدينى ، والرغبة فى نشر الإسلام بين الهنود الوثنيين . واستطاع السلطان محمود الغزنوى أن يبسط نفوذه إلى ما وراء كشمير والبنجاب ، وأن يجعل من إقليم البنجاب ولاية إسلامية يحكمها ولاة مسلمون من قبل الغزنوية .

ويقول وولزلى هيج فى هذا الصدد : « نستطيع إلى حد ما أن نعد محمود الغزنوى سلطاناً هندياً خالصاً ، إذ فتح فى خريف حياته إقليم البنجاب ، ونشر الإسلام فى ربوع الهند ، وافتتح طريقاً سلكه كثيرون بعده . أما خلفاؤه ، فقنعوا بحكم إقليم البنجاب ، وكونوا أسرة هندية خالصة » (١) . بعد أن جردوا من أملاكهم فى فارس وافغانستان وبلاد ما وراء النهر .

---

(١) راجع Wolseley Haig: Camb. Hist. of India, vol. III p. 26.

وكيفما كان الأمر فإن حملات الغزنويين فى بلاد الهند ، واتخاذهم لاهور مقراً لهم ، هى التى مهدت السبيل للسلاطين الغوريين بعدهم ، ثم لخلفاء الغوريين بعد ذلك وخلفائهم من المماليك الأتراك . وأولئك المماليك لأتراك هم الذين أسسوا سلطنة دلهى نشروا نفوذ المسلمين فى كافة أرجاء بلاد الهند الشمالية(١) .

قامت الدولة الغورية (١١٤٨ — ١٢١٥ م = ٥٤٣ — ٦١٣ هـ) على أنقاض الدولة الغزنوية أو السبكتكينية ، وتنسب هذه الدولة إلى مكان نشأتها ، وهو الغور أى جبال بين هراة وغزنة .

واستطاع الغوريون منذ سنة ١١٤٨ م أن يوسعوا مملكتهم حتى ملكوا بلاد الغور والأفغان والهند . فالدولة الغورية هى ثانى دولة إسلامية هندية بعد الدولة الغزنوية ، غير أن السلطان محمد بن سام الغورى ، وهو من عظماء ملوك الهند، لم يقم فى الهند دائماً ، بل كان يقيم فى مدينة غزنة عاصمة ملكه، وصار يحكم الهند عن طريق مملوكه قطب الدين أيبك، بعد أقطعه مدينة دلهى. وجلب السلطان محمد الغورى عدداً كبيراً من المماليك الأتراك، واعتنى بتربيتهم وإعدادهم لمهمة الغزو والجهاد . ويؤثر عنه أنه صار كلما ناقشه أحد عن ضرورة الحاجة إلى ابن يحافظ على ملك دلته، من بعده ، أجابه بأن لديه ألوفاً من الأبناء ، وهم مماليكه الأتراك(٢) . وتذكرنا هذه العبارة بعبارة الملك المنصور قلاون أحد سلاطين الدولة المملوكية الأولى بمصر أكثر هذا السلطان من جلب المماليك الصغار السن واعتنى بتربيتهم وكان يقول فى هذا الصدد « كل الملوك عملوا شيئاً يذكرون به بعد أن ما بين مال وعقار ، وأنا عمرت أسواراً، وعملت حصوناً مانعة لى ولأولادى وللمسلمين ، وهم المماليك »(٣) .

واستطاع السلطان محمد الغورى بفضل مجهودات مماليكه وعلى رأسهم

---

(١) راجع Lane—Poole : Mohammadan Dynasties. p. 284

(٢) أنظر Ibid : Medieval India under Moham. Rule, p 65.

(٣) راجع القريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢١٣ .

أيبك (١) ، أن يملك جميع البلاد الواقعة شمال جبال فندهيا حتى مصبات نهر الكنج . وارتفع بعض هؤلاء المماليك إلى مناصب الحكم والقيادة ومنهم ، تاج الدين يلدز فى غزنة ، وناصر الدين كوباشا فى السند ، وبختيار فى البنغال ، ثم قطب الدين أيبك نفسه فى دلهى وهو أقوى الجميع نفوذاً. وكان أيبك رجلا مسلماً متمسكاً بقواعد الإسلام ، ويظهر ذلك بوضوح فى معاداته لنظام الطبقات فى الهند ، ومعاملته للناس على اختلاف طبقاتهم على أساس المساواة التى ينص عليها الإسلام . ويروى الأستاذ لين بول أن لأيبك فى دلهى مسجداً عظيماً ذا منارة ارتفاعها ٢٥٠ قدماً ، وهى أطول منارة فى العالم ، ولا تزال قائمة إلى اليوم ، وتعرف بمنارة قطب نسبة لاسمه ، وهى محلاة بزخارف ونقوش تمتاز بالطابع العربى والهندى (١) . غير أن وولزلى هايج يرجح بناء هذه المنارة فى عهد مملوك أيبك وخليفته على عرش دلهى ، وهو السلطان التتمش ، الذى بناها فعلا فى سنة ١٢٣١ — ١٢٣٢م ، تكريماً لولى الله الخواجه قطب الدين بختيار كاكى وهو الذى أقام فى غزنة والملتان بعضاً من الوقت ثم استقر أخيراً فى دلهى حتى وفاته فى ديسمبر سنة ١٢٣٥م (٢) .

وفى ١٥ مارس سنة ١٢٠٦ م اغتيل السلطان محمد الغورى على ضفاف نهر السند ، بيد أحد غلاة الاسماعيلية ، وبموته اختفت غزنة والغور من التاريخ وظهرت العاصمة الإسلامية دلهى فى الهند .

وتوفى أيبك بعد وفاة سيده ببضع سنوات ، إذ انتهى حكمه على هندستان فى نوفمبر سنة ١٢١٠ م ، وذلك على أثر سقوطه عن ظهر جواده أثناء

---

(١) نقل أيبك فى حداثته من تركستان إلى نيسابور حيث بيع إلى والى تلك المدينة . وبعد وفاة سيده بيع ثانية ، واستقر أخيراً فى يد محمد الغورى . واستطاع أيبك أن يصل إلى أعلا المناصب ، وأن يكسب ثقة سيده بفضل كرمه وسخائه حتى إنه لقب باسم لأقبقاس أى المانح بالآلاف . وأيبك لفظ تركى معناه أمير قر . راجع Wolseley Haig : Op Vol. III., p. 41.

(٢) أنظر Lane-Poole : Medieval India under Mohammadan Rule. p. 67—69.

لعبه الكرة أوالبولو الفارسية. وسادت الفوضى بعد موت أيبك مدة من تولى الملك فيها ابن غير كفؤ يدعى أرام شاه ، وانتهى الأمر بأن خلعه أحد مماليك أبيه البارزين وهو شمس الدين التتمش ، واستأثر بعرش دلهى لنفسه(١) . ويعتبر التتمش المؤسس الحقيقى لدولة سلاطين المماليك بالهند ، وفى عصر ذلك السلطان ظهور الخطر المغولى تحت زعامة جنكيزخان الذى هدد العالم الأسيوى بأجمعه . وكان أول نذير لاقتراب هذا الخطر فرار يلدز حاكم غزنة إلى داخل الهند من ضغط الجيوش الخوارزمية المنهزمة أمام الجيوش المغولية .

خرج ألتتمش من هذه المحنة أقوى مما كان ، إذ احدقت القوات المغولية والخوارزمية بقوات منافسيه فى الشمال، أمثال يلدز وكوباشا ، وصار من السهل عليه بعد ذلك أن يستعيد جميع ممتلكات سلفه أيبك شمال جبال فندهيا(٢) .

وبلغ فوز ألتتمش أقصاه عندما اعترف به خليفة بغداد المستنصر بالله ، وبعث له بالعقد والخلع التقليدية فى ٨ فبراير سنة ١٢٢٩ م. فأصبح ألتتمش بذلك أول ملوك المسلمين الذين تسلموا مثل هذا التقليد فى الهند ، ومنذ ذلك التاريخ ضرب السلطان ألتمش نقوداً فضية نقش عليها اسم الخليفة العباسى

(١) نجد هذه الظاهرة فى طول تاريخ المماليك فى مصر ، حيث كان السلطان المملوكى يهتم بتولية ابنه من بعده، ويحصل على موافقة أمراء المماليك بذلك، فإذا توفى السلطان أقيم ابنه فى السلطنة فعلا، حسبما سبق الاتفاق عليه، ويظل الإبن سلطاناً مدة تطول أو تقصر، وهى على كل حال لا تزيد يوماً واحداً عن المدة التى يكون أمراء المماليك ، استغرقوها فى مؤامراتهم عمن تكون له السلطنة . فاذا تم ذلك خلعوا الابن، وتولى السلطنة المملوك الأصلح للبقاء ، لأنه لم يكن من المنتظر أن يقبل المماليك أن يكون ابن أحدهم سلطان عليهم ، وهو لم ينشأ نشأتهم ، انظر المقريزى: كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٣٣٥ ، حاشية الدكتور محمد مصطفى زيادة.

(٢) استطاع ألتتمش أن يأسر يلدز، ويقتله سنة ١٢١٨ م بعد أن طاف به شوارع دلهى . أما كوباشا فقضى على مقاومة السلطان جلال الدين خوارزمشاه وجنوده الخوارزمية سنة ١٢٢١، واستقر الخوارزمية فى إقليم السند، ثم رحلوا إلى فارس سنة ١٢٢٤. ولم يجد السلطان ألتتمش صعوبة بعد ذلك فى طرد كوباشا من السند، بعد أن أنهك الخوارزميون قواه ؛ ويقال إن كوباشا غرق فى نهر السند انتحاراً أثناء فراره سنة ١٢٢٨ . انظر Camb. Hist. of India, vol. III., p. 52—55

بجوار اسمه . وكان ذلك شيئاً جديداً على نظام العملة الهندية ، إذ كان الغزاة قبل ذلك يضربون نقوداً معدنية صغيرة على غرار النقود الوطنية ، تنقش عليها أشكال مألوفة لدى الهندوس ، كما كانت أسماء الغزاة تكتب بحروف هندية فى غالب الأحيان . فالتتمش يعتبر أول من ضرب نقوداً فضية عربية خالصة فى الهند(١) .

وتوفى السلطـــان ألتتمش سنة ١٢٣٦ ، ولم تكن هناك شخصية أكثر صلاحية للملك من بعده سوى شخصية ابنته رضية الدين التى جلست على عرش دلهى أربع سنوات تقريباً (١٢٣٦ — ١٢٤٠ م) . وكانت هذه السلطانة على قدر كبير من الذكاء ، وحفظت القرآن الكريم وتعلمت الكثير من التعاليم الإسلامية ، ولهذا فضلها أبوها على إخوتها الذكور ، لانغماسهم فى اللهو ، ونادى بها ولية لعهده . ولما آلت السلطنة إلى وضنة الرتب لم تلبث أن دلت على مقدرة عظيمة وعقل وافر ، وسماها مؤرخو الهند « ملكة دوران بلقيس جهان »(٢). وبذلت رضية الدين جهدها لتظهر بمظهر الرجال ، فارتدت أزياءهم ، وقادت جيشها إلى الحرب على ظهر فيلها . وكان النظام المملوكى فى الهند قد تدعمت أركانه على يد أيبك ومملوكه التتمش ، الذى ينسب إليه تأسيس فرقة خاصة من المماليك الأتراك عرفت بالأربعين ، فاستأثر أولئك بالنفوذ والثروة بعد موت التتمش ، وتقاسموا المملكة ووظائفها فيما بينهم ، بعد أن قضوا على جميع الأحرار فى مختلف الوظائف . وأنف أولئك المماليك من رؤية امرأة على العرش ، ولاسيما بعد أن قربت إليها رجلا عباسياً — وقيل أفريقيا — كان يشغل وظيفة قائد الفرسان ، فقاموا بثورة ، حاولت السلطانة رضية

---

(١) انظر Wolseley Haig : Op. cit., p. 54. & Arnold : The Caliphate. p. 86—87. & Lane—Poole : Med. India under Mohammadan Ru'e., p. 73. & Ency. Isl, Art. Illtutmish.

(٢) راجع مقدمة كتاب Blochet : Hist. des Su'tans Memlouks. vol. 1., p. 373 (مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد) .

الدين قمعها بكل شجاعة ، ولكنها هزمت وانتهى الأمر بقتلها فى ١٣ أكتوبر سنة ١٢٤٠ م(١).

فى هذا الوقت ظهر المغول فى إقليم السند من جديد ، واستولوا على مدينة لاهور فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٢٤١ م، وذبحوا سكانها، وفر حاكمها قراقوش إلى دلهى . أصبح الموقف يستدعى ظهور شخصية قوية تقبض على زمام الحكم بيد من حديد ، وهذا مما ساعد على ظهور بهاء الدين بلبان أحد مماليك التتمش .

وحكم بلبان هذا فى بادىء الأمر وهو وزير للمدعو ناصر الدين محمود شاه ابن التتمش الذى كان ملكا متقشفاً متديناً منصرفاً لقراءة القرآن ومجالسة العلماء . وتزوج محمود شاه من ابنة وزيره بلبان سنة ١٢٤٩م ، وأدى هذا بطبيعة الحال إلى إزدياد نفوذ بلبان واستئثاره بكل نفوذ فى الدولة(٢) . وبعد موت هذا الملك فى ٨ فبراير سنة ١٢٦٦ م ، اعتلى بلبان عرش السلطنة وتلقب بغياث الدين(٣) .

وتروى الروايات المعاصرة أن بلبان كان ذا أصل عريق ، وأن تحمسه للجهاد ضد المغول هو الذى جعله يرحل فى حداثته عن تركستان تاركا قبيلته وأصحابه . ثم حدث أن سرق بلبان وبيع فى الهند، فاشتراه السلطان التتمش . وتضيف الرواية أيضاً أن السلطان التتمش رفض شراء بلبان فى بادىء الامر، لقصر قامته ودمامته ، فصاح به بلبان « يا سيد العالم ! ولماذا تشترى المماليك الاخرين؟ » فأجابه ضاحكاً « أشتريهم لنفسى » فقال بلبان « إذن فاشترينى لله » ، فأجابه التتمش إلى طلبه ، ثم سرعان ما ظهرت مواهبه ، فصار يتدرج حتى اندمج فى جماعة الأربعين مملوكاً(٤) .

---

(١) انظر (Camb. Hist. of India, III. p. 606 & Ency-Isl. Art. Ridiya.

(٢) انظر Camb. Hist. of India., III., p. 67.

(٣) نفس المرجع Ibid. III p. 73.

(٤) راجع Lane—Poole : Op. cit. p. 81.

اشتهر السلطان بلبان بصفات عسكرية صارمة، وعدالة لا تفرق بين شخص وآخر، وأول عمل اهتم به هو القضاء على طغيان جماعة الأربعين مملوكا. ومن أمثلة ذلك ما فعله بالأمير بقبق حاكم إحدى المدن، عندما علم أنه ضرب خادماً له ضرباً مبرحاً أفضى إلى موته، إذ أمر بلبان بقتل هذا الأمير جلداً، كما أمر بشنق صاحب أخبار تلك المدينة، لتستره على هذا الحادث. ثم هناك الأمير هايبث خان الذى قتل رجلا بتهمة السكر والعربدة، فلما بلغ بلبان هذا الخبر، أمر بجلد هذا الأمير خمسمائة جلدة وإرساله إلى أرملة القتيل فى هيئة عبد رقيق، بحيث يحل لها قتله كما قتل زوجها، ولم ينقذ هذا الأمير من الموت سوى وساطة بعض إخوانه الذين افتدوه بمبلغ كبير من المال. ولم يتردد بلبان فى شنق أحد قادته، لفشله فى قمع ثورة من الثورات، ولم تكن هذه العقوبة لتقصير هذا القائد فى مهمته، بل لأنه كان على شاكلة بقبق وهايبث خان من جماعة المماليك الأربعين.

وكان تعيين أصحاب الأخبار فى المدن المختلفة، موضع عناية بلبان واهتمامه الشخصى، وذلك لأهمية الأعمال التى يقومون بها فى كافة أرجاء الدولة، إذ عن طريق تقاريرهم كان السلطان يلم بأحوال كل مدينة، ولهذا السبب حرص بلبان على أن يجعلهم مستقلين عن سيطرة الولاة المحليين، خاضعين لسلطانه المباشر، كما حرص على أن يتوخى الدقة والحذر عند اختيارهم أو ترقيتهم(١)

وتظهر لنا صرامة بلبان وقسوته فى السياسة التى اتبعها للضرب على أيدى عصابات المجرمين وقطاع الطرق الذين انبثوا فى المسالك والطرقات الموصلة بين دلهى والبنغال يعيثون فساداً وتخريباً. وقسم بلبان تلك الجهات إلى مناطق، وخصص لكل منطقة قائداً من قادته ثم حمل عليها فأزال منها الغابات التى كانت وكرا لتلك العصابات، وشيد فيها القلاع الحصينة المزودة بالأسلحة والذخائر والجنود الأفغانيين. وبهذه الإجراءات الحاسمة استتب الأمن فى تلك الجهات وعاد الإتصال بين دلهى والبنغال.

وتتجلى صرامة بلبان أيضاً فى سياسة العنف التى اتبعها فى قمع الثورات التى

---

(١) أنظر Camb. Hist. of India, III., p. 75

قامت فى عهده، ونخص بالذكر منها ثورة لأمير طغريل حاكم البنغال سنة ١٢٧٩م، وهى الثورة التى قضى عليها بلبان قضاء تاماً ، وعلق رؤوس الثوار على جانبي طريق طويل، وصرح قائلا بأن بلاد البنغال لا تستطيع بعد ذلك أن تثور على دلهى بأى حال من الأحوال .

وتجلت مواهب بلبان فى انتصاره على قوات المغول التى اقتحمت إقليم السند سنة ١٢٧٩ م ، فاستحق بذلك لقب « الق خان » أى الأمير القوى . وترجع انتصارات بلبان على المغول إلى الاستعدادات العظيمة التى قام بها لدفع ذلك الخطر الداهم ، إذ اهتم بتحصين الثغور الهندية وتجنيد قبائلها تحت قيادة ابن عمه شيرخان سنقر ، كما أعد جيشاً قوياً مستعداً لصد أى هجوم مغولى خاطف فى أية لحظة حتى لا يعرض دلهى لما كان من مصير بغداد .

وفى ٩ مارس سنة ١٢٨٥ م فقد بلبان ابنه الأكبر محمد خان فى واقعة ضد المغول فى إقليم الملتان ، فحزن عليه حزناً شديداً ، ومات بعده بسنتين(١) .

كان بلبان من أولئك الأشخاص الذين لا يتركون وراءهم خلفاء أقوياء ، لأن قسوته حالت دون ظهور شخصيات قوية فى الميدان ، إذ قضى على جماعة المماليك الأربعين ، ونفى كثيراً من ذوى النفوذ فى الدولة ، سواء من الحكام والأدباء، ومنهم الشاعر أمير خسرو. وكانت كل آماله مركزه فى ابنه الأكبر الذى مات فى عهده ، ولهذا اضطربت شئون المملكة بعد مماته مما أتاح الفرصة لقيام أسرة جديدة هى الأسرة الخالجية(٢)، وهى التى استولت على عرش دلهى سنة ١٢٩٠ م تحت زعامة جلال الدين فيروز شاه .

---

(١) هناك وجه شبه عجيب بين السلطان بلبان والسلطان قطز، ثالث سلاطين الدولة المملوكية الأولى فى مصر ، فكلاهما ينحدر من أصل عريق ، وكلاهما بيع بيع الرقيق ، فاشترى الأول السلطان التتمش ، واشترى الثانى السلطان أيبك التركمانى . ثم أخذ كل منهما يتدرج فى مراتب الرقى حتى استأثر بالملك بعد موت أستاذه . وكلاهما كان متحمساً للجهاد ضد المغول ، وقد استطاع كل منهما أن ينقذ بلاده من ذلك الخطر المغولى الداهم الذى اجتاح بقية العالم الإسلامى فانتصر عليهم بلبان فى السند فانتصر عليهم قطز فى فلسطين عند عين جالوت سنة ١٢٦٠ .

(٢) تنتسب هذه الأسرة الأفغانية إلى بلدة خالج ، وقيل ، إنها تركية الأصل نزحت إلى أفغانستان، وأخذت عن أهلها عاداتهم وطرائقهم . راجع W. Haig : Camb. Hist of India, III. p. 91.

نرى كل ما تقدم أن هناك أوجه شبه عديدة بين دولة المماليك الأتراك فى دلهى ودولة المماليك الأولى فى القاهرة ، إذ عاصرت كل منهما الأخرى تقريباً عند أن دولة المماليك فى الهند قامت سنة ١٢٠٦م (٦٠٢هـ)، أى أربعا وأربعين سنة قبيل قيام الدولة المملوكية الأولى فى مصر ، وظلت تلك الدولة المملوكية الهندية حتى سنة ١٢٩٠ م (٦٨٦ هـ) .

وكان سلاطين هاتين الدولتين من فى مصر والهند المماليك الذين جلبوا من أسواق النخاسة ، ربوا تربية عسكرية إسلامية للحرب والجهاد ، ثم تمكنوا بقوة نفوذهم من التدخل فى تولية السلاطين وعزلهم ، ثم الاستئثار بالملك لأنفسهم . هذا وكان العنصر التركى هو الغالب على مماليك الدولتين ، ونتج عن ذلك وجود تشابه فى الأسماء أمثال أيبك وبلبان وسنقر وقراقوش وبختيار وبقبق وغيرهم . وهدد الخطر المغولى كلا من الدولتين ، ولولا قوة المماليك فيهما ، لاجتاح مصر والهند كما اجتاح بقية العالم الإسلامى . وشاهدت كلتا الدولتين ظاهرة فريدة من نوعها فى العالم الإسلامى، وهى جلوس ملكتين على عرشيها ، فعلى عرش دلهى جلست الملكة رضية الدين (١٢٣٦ — ١٢٤٠) ، وجلست شجرة الدر على عرش مصر سنة ١٢٥٠ . وهناك وجه شبه أخير نلمسه فى تقرب سلاطين الدولتين للخلافة العباسية(١) ، لأن اعترافها بهم ورضائها عنهم سوف يقوى من نفوذهم الأدبى ، ويكسبهم صفة شرعية للحكم ، ويحيطهم بسياج مكين ضد محاولات منافسيهم .

مختار العبادى

---

(١) ظلت دولة المماليك الأتراك فى الهند على ولائها للخلافة العباسية فى بغداد حتى بعد أن قضى المغول عليها سنة ١٢٥٨ م ، إذ ظل السلطان بلبان ينقش اسم الخليفة المستعصم المقتول على النقود ، ويذكر اسمه فى الخطبة من المنابر طوال حتى سنة ١٢٨٧ م وهى سنة وفاة بلبا راجع (Arnold : The Caliphate. p. 87)